

الفصل العاشر
الأبواب المغلقة ٢٠٠١



وأحدث معارك الصحافة المصرية في تخريض الرقابة على منع الأفلام معركة «الأبواب المغلقة» إخراج عاطف حنّانة في مايو ٢٠٠١، والتي عبرت عن أساليب التفكير السائدة في مصر في بداية القرن الواحد والعشرون.

تحت عنوان «عينة لأفلام التمويل الأجنبي» تقول الناقدة السينمائية خيرية البشلاوي في جريدة «المساء» اليومية يوم الأحد ٢٧/٥/٢٠٠١ أن الفيلم يعبر عن «مناخ عام مغلق مسحوق بأشكال الفقر تعلو فيه أصوات المآذن وتتداخل مع بعضها في توقيت واحد تتنافر وتنتشر في جنباته الفساد، فلا توجد في الفيلم شخصية واحدة إيجابية ولا عنصر واحد يمنح الأمل في حاضر أو مستقبل. والملحح الأكثر حضوراً اتساخ الشوارع وفقر الناس المادى والأخلاقي والروحي والمعنوى فضلاً عن إنهيار المؤسسات التعليمية والإعلامية ومظاهر الفن أو التحضر». وعندما تذكر الناقدة أسماء الشخصيات فاطمة وزينب ومحمد

وحسن وخالد تضع بين قوسين (تأمل الأسماء) بمعنى أنها تشمل اسم النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأسماء ابنتيه والحسن ابن علي وخالد ابن الوليد!

وتقول الناقدة التي تمارس النقد السينمائي منذ أكثر من ربع قرن «الفيلم فى النهاية يمثل عينه دالة وكاشفة وصالحه للدراسة عن الأعمال التى تفوز بالتمويل الأجنبى»، وأن «الواقعية» (الكلمة بين قوسين) التى تتبناها هذه الأفلام مقضى عليها أمام جمهور سوف يرفضها بالقطع، والأمل الوحيد أمامها هو هذا التمويل الأجنبى الذى يرعاه موزعون ومنتجون محليون حققوا مكسبهم (الكلمة بين قوسين) قبل أن يبدأ عرض الفيلم».

وفى نفس اليوم نشرت جريدة «العربى» الأسبوعية التى يصدرها الحزب الناصرى (نسبة إلى جمال عبد الناصر) مقالا للكاتب السياسى يوسف الشريف تحت عنوان «يوسف الشريف يحذر من فخفاخ التمويل الفرنسى: الأبواب المغلقة حتى أشعار آخر» بدأه بقوله:

«الأبواب المغلقة فيلم مشبوه ومفضوح وسىء النية مع سبق الأصرار والترصد بمصر والمصريين. وقد بدأ إنتاج هذا الفيلم أوائل التسعينات فى أعقاب حرب الخليج الثانية، ثم تعثر لأسباب يطول شرحها. وبينها الجدل العميق الذى شهدته أروقة الرقابة على المصنفات الفنية شهورا حول العديد من المشاهد التى لاتندرج فحسب تحت قائمة الأباحية الجنسية المحظورة، وإنما لتناولها على قيم وعادات الشعب المصرى وموروثه الدينى والأخلاقى خاصة إعلائه لمكانة الأم بدعوى الواقعية أو حرية الإبداع. وبينها محاولة الصبى الصغير الفنان المدهش أحمد عزمى بطل الفيلم الهم بوالدته الفنانة القديرة سوسن بدر بنية الواقعة والتلصص عليها عارية فى الحمام، الأمر الذى يدعونا إلى الثناء على الرقابة عندما رفضت عرض هذه المشاهد الفجة وما شابهها، وأصرت فى شجاعة حذفها رغم اتهامها تارة بالسلفية والماضوية وأخرى بالعداء للانفتاح والتنوير،

ومع ذلك لم يسلم الفيلم من احتضان الطفل غير البريء لوالدته بعد التخفيف من نية الواقعة التي أدركتها في حينها وصدته عنها، وكذا المشهد «البورنو» حين التحم اللحم باللحم، والتقت شفتا الفنان محمود حميدة في دوره الباهت بشفتي سوسن يدر وراح يستعرض اكتنازه ومنحياته مرتشفا ومدغدغا في تباطؤ مقصود لذاته!

والحقيقة إنني لم أستبشر خيراً منذ استعراض مقدمة الفيلم بالشكر والامتنان لعدد من المؤسسات الثقافية والفنية والفرنسية، على أسهامها بسخاء وبالعملة الصعبة - طبعاً - في كلفة انتاجه، لا لتعصب ضد كل ما هو أجنبي بمنطق المؤامرة والعياذ بالله، وإنما لتراكم وعينا بالخطط والأساليب الذكية للاختراق الثقافي والعولمة التي تذكرنا بالعقوبات الذكية المراد فرضها على العراق. والا ما هو السر في أعمال معيار الانتقائية لكل ما يشين إلى مصر... والازدراء بالمصريين في الأعمال الأدبية والبحوث الاجتماعية والسياسية المرشحة للترجمة مدفوعة الأجر سلفاً للمؤلف أو الباحث، فضلاً عن حصد الجوائز، وهل يمكن بالتالي استثناء مركز ابن خلدون لصاحبه الدكتور سعد الدين إبراهيم وشركاه من الوقوع في شرك هذه الانتقائية المريبة بعد أن نالوا ما يستحقونه من أحكام القضاء العادل، وكيف نفسر ما تنشره الصحافة والمحافل العلمية في أوروبا وأمريكا تباعاً ويشيراً بأصابع الاتهام بالتعصب والتخلف والجور والاستبداد إلى مصر والمصريين، وهو معين لا ينضب من انتاج وتوريد بعض مراكز البحوث وحقوق الانسان المصرية، كونها مادة مطلوبة في الخارج ومرحبا بها وتجد ما تستحقه من المكافأة بل والحماية أيضاً!.

ويقول الكاتب: «ولأن انتاج الفيلم بدأ في اعقاب أزمة الخليج، من ثم تخاشى العراق في لافتات شركات السفن كبلد عربي يرحب بالعمالة المصرية،

وزاد من نفاقه للكويت حين انحاز بالعداء لصدام حسين «ويستطرد» ورغم أن مودة المعالجة السينمائية لظاهرة التطرف الأصولي قد انحسرت مع انحساره في مصر، إلا أن فيلم «الأبواب المغلقة» رأسه وألف سيف التأكيد على استمرارها وتساعدنا عيني عينك دون رادع من القانون، وفي ظل الغياب المطلق لقوات الأمن وربما تحت سمعها وبصرها وإلا كيف قدر للجماعات الأصولية أن تعقد اجتماعاتها علنا وفي حضور الآلاف، وهذا الغث من الجهالة والتجهل الذي حفلت به الخطب الدينية وحوارات ومعاملات هذه الجماعات والأكثر غرابة في المعالجة أن تتكفل في نفس الوقت بإطعام الجائعين والسعي إلى زواج الأرامل بالضأن ومد يد المساعدة المالية لفك ضائقة المحتاجين والسعي إلى زواج الأرامل والشباب الذين لا عمل لهم ولا يملكون قوت يومهم، اتساقا مع شعار «الإسلام هو الحل».

ويختتم يوسف الشريف مقاله قائلا:

«أغلقت الأبواب وسدت كل المنافذ في وجه السواد الأعظم من الشعب المصري، وذلك على وجه التحديد واليقين السبب في انتقاد قصة الفيلم وتمويله من المؤسسات الفرنسية، ولا ينسى الفرنسيون ولا يتعلمون أبدا، لا ينسون إخفاق نابليون في استباحة مصر وثورة أزهرها الشريف، وأقول حلمه في التوسع الإمبراطوري عبر مصر، وهزيمتهم الماحقة في عكا على يد الفلسطينيين، ولا طردهم من لبنان وسوريا والجزائر، ولا يتعلمون أن استعادة ما كان لهم من نفوذ بالوسائل الثقافية والفنية المشبوهة إختراق واستعمار جديد ومرفوض معلوم سلفا، وعليهم أن يكفوا عن الزرابة بالإسلام والمسلمين بالعرب والعروبة، لأن إسرائيل المستفيد الوحيد من هذا النهج المعوج والسلوك الخاطيء بينما بناء جسور الثقة والتلاقح الحضارى بيننا وبينهم أفضل وأكثر نفعا من إجترار مرارات الماضي

واحقاده وثأراته المغلفة بالإبداع والنوايا المشكوك في مصداقيتها». وفي الأسبوع التالي مباشر ٢٠٠١/٦/٣ نشرت «العربي» على صفحة كاملة ٣ موضوعات عنوان الأول «يسرا رفضت بطولة الأبواب المغلقة بسبب المشاهد الساخنة»، وعنوان الثاني «سوسن بدر تدافع عن نفسها: محمود حميدة لم يلمسني في مشهد الجنس العاري». وعنوان الثالث «عاطف حتاته يرد: مشهد الولد وأمه لا يستحق كل هذه الحساسية». وفي نفس الصفحة مقالين عن الفيلم الأول للكاتب سعيد شعيب يلوم فيه على المخرج التعسف الشديد، والخروج الأخلاقي من بعض شخصياته على حد تعبيره، والثاني للناقد السينمائي أحمد يوسف يقول فيه:

«إن البعد الجنسي - الذي لا يمكن أن نتجاهله أبداً في تجربة صبى على عتبات المراهقة، بل لعله البعد الأهم في صياغة نتائج هذه التجربة.. هو ما آثار بعض الكتاب الذين هاجموا فيلم «الأبواب المغلقة» بسبب إحتوائه على بعض التلميحات الأوديبية في علاقة الابن بأمه لكنهم تجاهلوا - أو جهلوا أن تلك العلاقة الأوديبية لا تأتي رغبة في «قتل الأب». وإنما بسبب «غياب الأب»، وهو الغياب المادى أو المعنوى أو كلاهما معاً، الذى يحمل دلالات سياسية شديدة الوضوح، إذ يعنى افتقاد الأب الذى «يحمى» بدلاً من أن يقمع، أو يبيعك مثل أى سمسار فى سوق النخاسة كما فى «الأبواب المغلقة». ويقول «وإذا كنت قد إستطعت فى السطور السابقة أن تفهم طرفاً من «حدوتة» الفيلم، فأن الأكثر أهمية هو أن فيلم «الأبواب المغلقة» يستخدم لغة سينمائية شديدة البلاغة والإبلاغ، يندر أن تجد لها مثيلاً فى أفلامنا العربية».

المؤامرة الغربية

ليس هذا كل ما نشر عن فيلم عاطف حتاته، وقد كانت المقالات الإيجابية

لنقاد السينما أكثر من المقالات السلبية على أية حال، ولكن النماذج المختارة كما ذكرنا تدل على أساليب التفكير السائدة في مصر تجاه الانتاج المشترك، بل وتجاه كل شيء. فنفس هذه المقولات تتردد عند تصوير الأفلام الأجنبية، وعند وجود تمويل أجنبى لأى بحث، بل إن حقوق الإنسان مشبوهة لو كان وراء المؤسسات التى تدافع عنها تمويل أجنبى. وإذا لم يكن هذا نتيجة الشعور بوجود مؤامرة أجنبية حتى لو نفى يوسف الشريف ذلك، فماذا يكون إذن.

ماذا يكون وراء ملاحظة تداخل أصوات الآذان فى مقال الناقدة خيرية البشلاوى، وتنبية القراء إلى الدلالات الإسلامية لأسماء الشخصيات، وهو ما يستحيل أن يخطر على بال المخرج المؤلف، غير الشعور بالمؤامرة الأجنبية على المصريين والعرب والمسلمين. وماذا يكون وراء القول بأن الفيلم يخلو من أى شخصية إيجابية، بينما شخصية الأم إيجابية تماماً، وهو ما لا يصعب إدراكه على ناقدة محترفة إلا عندما يغمرها الشعور بالمؤامرة. وكما يتضمن مقال الناقدة دعوة الجمهور إلى رفض الفيلم، يتضمن مقال الكاتب السياسى الثناء على الرقابة، والثناء على نفسه لأنه ليس متعصباً ضد كل ما هو أجنبى بمنطق المؤامرة، وإنما لتراكم وعيه بالخطط والأساليب الذاكية للاختراق الثقافى.

الواقع أن مقال يوسف الشريف يعبر عن التفكير السائد فى مصر الآن تجاه كل شيء وليس فقط تجاه الانتاج السينمائى مع طرف أجنبى. فكل التيارات من اليسار إلى اليمين مروراً بالوسط تتفق على إهدار قيمة الحرية، أو بالأحرى اعتبارها ليست قيمة على الإطلاق. إنهم جميعاً يرتدون الخوذة العسكرية والعمامة الدينية معاً بدرجات متفاوتة، ولم يعد هناك إلا صوت خافت جداً وغير مسموع لمن يؤمنون بالحرية. ولذلك ليس من الغريب أن يوجه يوسف الشريف الثناء للرقابة، ويدافع عن نظام صدام حسين فى العراق فى نفس الوقت.

ليس هناك في فيلم عاطف حتاتة بأى حال من الأحوال ما يدفع يوسف الشريف أو غيره إلى القول بأنه ينافق الكويت وينحاز بالعداء لصدام حسين، ولا يوجد دليل واحد يررر للكاتب استخدام كلمتى نفاق وعداء، بل إن تعليق الشخصية الرئيسية (الأم) على الحرب بالنص «بلا كويت بلا عراق بلا قرف»، وهو تعليق يؤخذ على عاطف حتاتة لأنه هروب من اتخاذ موقف واضح مع أو ضد غزو العراق للكويت. ولكن الكاتب مثله مثل كل التيارات السائدة فى مصر التى تهدر قيمة الحرية يرفض الموقف المحايد للمخرج، ويعبر عن وجهة نظر هذه التيارات التى ترى أن احتلال العراق للكويت أهون من التدخل الأجنبى الذى أدى إلى تحرير الكويت وتدمير العراق، وكأنه كان على الكويت أن تختار بين تحريرها وبين تدمير القوات التى قامت بغزوها.

وتكامل المنظومة الفكرية للكاتب يوسف الشريف مع القول بأن ظاهرة التطرف الأصولى انحسرت فى مصر، ومع ذلك فالفيلم يرى أنها مستمرة. نعم، لقد انحسرت بالفعل كظاهرة، وأصبحت من تيارات الفكر السائد، وأوشكت أن تصبح التيار الغالب على كل التيارات. ويصل تكامل المنظومة بالحديث عن اسرائيل، فهى كما يرى الكاتب المستفيدة الوحيدة من فيلم «الأبواب المغلقة» عن طريق الزاوية بالاسلام والمسلمين والعرب والعروبة. وبالطبع ما أن تتحدث عن اسرائيل حتى يصبح على الطرف الآخر الذى يقرأ أما أن يخرس أو يتهم بالخيانة، فهى الوسيلة الأسهل لإنهاء كل حوار، فالفيلم جزء من المؤامرة الغربية، واسرائيل هى ذروة تلك المؤامرة.